

التفاؤل

في شعر إيليا أبي ماضي

١

يختلف الناس في إقبالهم على الحياة ، منهم من يقبل عليها محزوناً مبتئساً لا يراها إلا شؤماً ونكراً وظلمة ما وراءها ظلمة ، ومنهم من يقبل عليها فرحاً مبتهجاً لا يراها إلا فألاً وخيراً ونوراً ما فوقه نور . والأولون هم المتشائمون الذين لا يرون في الحياة إلا الشقاء والألم ، فإن وصفوها صوروها في أبشع صورها وعرضوا علينا سيئاتها وما يداخلها من مرارة ، والآخرين هم المتفائلون الذين لا يرون في الحياة إلا السعادة والسرور فإن وصفوها صوروها في أجمل صورها وعرضوا علينا حسناتها وما يطوى فيها من بهجة وفرح .

ومذ وجد الشعر العربي وجد فيه الفريقان ، فريق يصور الحياة على أنها محن وخطوب وكوارث ، وفريق يصورها على أنها متع ولذائد وهناء وصفاء . ولعل طرفة خير من يعبر عن الفريق الثاني في الجاهلية ، فهو يعلن في معلقته أن متعته في حياته ثلاث : الخمر والمرأة والشجاعة ، وهو يرضى نفسه فيها جميعاً قبل أن يرضى الناس ، فهو لا يفكر في غيره ، إنما يفكر في لذائذه . وقد تكون الحياة الوثنية المادية التي كان يحياها العرب حينئذ هي التي دفعت طرفه وأمثاله في الجاهلية إلى أن يقتنصوا فرصة دنياهم وينهلوا من كئوس اللذة والمتعة فيها حتى الثمالة فإنهم لم يكونوا يدينون بالآخرة وكانوا يظنون أن الإنسان إذا مات فني وانتهى وأنه ليس له حياة وراء حياته ، وهم لذلك يريدون أن يحسوا كئوسها ، فالعمر قصير والموت قريب .

ولما دخل العرب في الإسلام حرم عليهم الخمر وأن يأتوا بفاحشة ، وقد فتح أمامهم أبواب الحياة الآخرة التي كانت مغلقة في الجاهلية ، فانصرفوا

جملة عن متاع الحياة الدنيا ، وطلبوا ما عند الله من ثواب ونعيم ، ومتاع أخرى مقيم . على أن بقية منهم بقيت تفكر في متع الحياة العاجلة وملذاتها ، فكانوا يقبلون على الخمر وكانوا يُحَدُّون فيها ويقام عليهم العقاب ، حتى إذا توغلنا في أواخر العصر الإسلامي لعهد الأمويين وجدنا شعراء في العراق يجيئون الليل بالشراب والطرب ، بل وجدنا الوليد بن يزيد ، الخليفة الأموي المشهور ، يعكف على الخمر واللهو ، حتى ليتحول قصر الخلافة إلى مقصف كبير للغناء والشراب .

. وتتسع مع العصر العباسي موجة اللهو والعبث والمجون ، فالتناس يقبلون على الخمر والغناء ومجالس الأنس . ويكثر الشعراء الذين يتغنون في الخمر والقيان على نغم الناي وآلات الطرب في الحانات وفي الأديرة وعلى الغدران والأنهار وبين قطع الرياض . وهم ليسوا جميعاً سواء في الإحساس بهذا المتاع . أو بعبارة أخرى ليست نفوسهم سواء ، فمنهم من أضناه التفكير في الحياة وهمومها ، وهو يفرق هذه الهوموم في الخمر ، ومنهم من يريد أن يكمل متاعه بديناه ، فالحياة لا تزور له ولا يجد فيها مرارة ، وهو لذلك يقبل على الخمر والقصف حتى يستمتع بما تشبهه نفسه .

وقد عرف العرب ضرباً مختلفاً من التفكير في الحياة ، وترجمت لهم كتب الفلسفة ، ونقل إليهم الموالى فرساً وغير فرس كل ما كان لديهم من نحل مانوية وغير مانوية ، وكان كل ذلك يؤثر في العقائد والنفوس ، فترندق من ترندق ، واتسع بكثيرين التفكير في الوجود وفي الصلات الكائنة بين الإنسان وإلهه وبينه وبين الظواهر المختلفة في الكون ، وعجز نفر عن تبين هذه الصلات فضلاً عن تحليلها أو معرفة ما اختفى منها . وبذلك غاصوا في لجج من الشك والحيرة ، فالتمسوا اللذة في الخمر وأفرطوا في إرضاء الجسد والحس وكان هناك ماجنون يقبلون على اللذة ، لأنها تنعش نفوسهم وتبهجها وتجلو صدادها ، ولكن لم يكونوا هم الكثرة ، أو بعبارة أدق لم يكونوا هم المتمردين الذين عصروا خيالهم وإحساسهم في بيان غبطتهم باللذائذ واستغراقهم في الخمر

استغراقاً يشبه أن يكون عبادة . وأبو نواس خير من يصور هؤلاء المتمردين ، وقد اجتمعت له كل المؤثرات التي تدفع إلى الإفراط في المجون ، فقد مات أبوه وهو في المهدي ، وكانت الريبة تحوط أمه ، وألقت به الظروف في حجر والبة ، أحد مجنَّان عصره ، وخرج ماجنا من طراز لم يسبق إليه ، وقد ألم بجميع ضروب الثقافات والمعارف في زمنه ووعى من أفكارها المتناقضة ما زاد الاضطراب في نفسه اضطراباً أفضى به إلى المجون الحاد، بل إلى الشذوذ فيه كما أفضى به إلى الخمر بل إلى عبادتها عبادة كانت ثمرتها هذه الخمريات التي اشتهر بها ، والتي فاق فيها كل من سبقه ولحقه في تاريخ الشعر العربي . وهو في هذه الخمريات ، لا يصور عبادته لها واستغراقه فيها فحسب ، بل يصور أيضاً شكه وحيرته في الحياة بل في العقيدة ، فينكر الدين ويثير غباراً من الإلحاد الصريح ، ويندفع في الخمر يعب من كثوسها قبل أن تنضب ويتنضب معها كثوس العمر والحياة .

وتسير على الدروب في العالم العربي كله هذه الفلسفة النواسية ، فلسفة الخمر والمجون ، فنلتقي بها في كل مكان ، حتى أقصى البلاد الإسلامية شرقاً في إيران وخراسان وغرباً في الأندلس . وقد توسع الأندلسيون في وصف الطبيعة ، وأضافوا إلى صبوح الخمر وغبوقها وصف وداع المحبوبة وما يصاحبه من قلق العاشق وخوفه واضطرابه ، ولكن أحداً لم يبلغ عندهم مبلغ أبي نواس في خمرياته ، سوى شاعر فارسي ساقته المقادير لكي يبدع فيها إبداعاً غريباً .

وعمر الحيام هو الشاعر الفارسي الذي اختارته المقادير لكي يتناول قيثاره الخمر ، ويشدو عليها من جديد أنغاماً لا تقل جمالا عن أنغام أبي نواس ، بل لعلها تفوقها روعة ، فقد كانت أزمته النفسية أمام الوجود والكون وأسراره والحياة ومصيرها أشد حدة وعنقاً من أزمة سلفه ، وهو لذلك لا يهدأ ولا ينعم بلحظة راحة ، بل هو دائماً في قلق قد استحوذ على كيانه أمام الحياة وألغازها التي لا يستطيع حل طلاسمها وفك رموزها مهما غاص في أعماق تفكيره ،

وهو ينظر أمام عينيه ، فيرى الموت شاخصاً ، متأهباً أن يبدد أيامه وساعات عمره بين عشية وضحاها ، فيملاً الكأس بالخمير لعله ينسى أو لعله يطيب نفساً . ويعاوده تفكيره في الفناء وفي القضاء وما خطته الأقدار ، فينغمس في الخمر لعله ينسى هواتف هذه الأفكار ، ويدعو صحبه أن يغموا الفرصة وأن لا يفكروا في الأمس ولا في الغد المهول الخيف ، وحسبهم أن يقبلوا على الخمر فهمي ينبوع هذا الوجود وسره ، وهي التي تحول كئوسه المرة حلوة سائغة بما تنعش وتبهج ، إنها كل ما في الحياة من جمال ، فدع السماء وما في السماء ودع الموت وأهوال الفناء ، ولا تُصنَع للعقل وعبته في الجدل والحوار ، فإنه لن يستطيع أن يفك معمي أو لغزاً من ألغاز الحياة أو سرّاً من أسرارها ، فهو عاجز ، بل هو كفيف ضريير ، يخط في عمياء . وما لهذا العناء كله وأمامنا الخمر ومصاييحها المتقدة التي تنسينا عالم الفناء ومصير الأحياء . لقد جئنا إلى الأرض بدون إرادة ونخرج منها بدون إرادة ، وكل ما نلقاه فيها من حظٍ قدراً مقدور لا مفر منه ، فلندع التفكير فيها ، فإننا لُعبٌ في يد القدر يعبث بها وكُرّات يتقاذقها في ميدان الحياة ، وحسبنا أن نرتشف الخمر ونسكر ونطرب ، حتى نباعد بيننا وبين عالم العقل وتفكيره الذي يطحنه في غير طائل ، والذي لا نجني منه غير العناء والعذاب . وإذن فلنهبجر العقل وأفكاره في الحياة والكون ، ولننتلق - مع الخيام - إلى عالم الخمر السعيد ، نشربها على ضوء القمر وشفاف الغدران وعلى صوت الناي الساحر ، حينئذ نحرر أنفسنا - بزعمه - من آلام الحياة المظنية وتغمرنا نشوة السعادة ونحس الراحة الحقيقية في دنيانا الزاخرة بالآلام والأحزان .

٢

ولعل المهاجر الأمريكي لم يعرف في هذا القرن شاعراً كان أكثر تفاؤلاً ودعوة إلى الإقبال على الحياة من إيليا أبي ماضي وهو لبناني الأصل ، ولد في المحيثة سنة ١٨٨٩ ولم يكد يتم تعليمه الابتدائي حتى رحل إلى مصر في

سنة ١٩٠٠ وظل بها إحدى عشرة سنة يشتغل في التجارة ، وفتحت أثناء ذلك موهبته الأدبية ، فنظم الشعر وطبع أول ديوان له باسم « تذكارات الماضي » ولم يلبث أن هاجر إلى الولايات المتحدة ونزل سنسنتي ، ثم تركها إلى نيويورك ، وفيها ألقى عصا ترحاله حيث التقى بجران خليل جبران ورفاقه من أمثال ميخائيل نعيمة ونسيب عريضة ورشيد أيوب ، ولما ألقوا جماعة الرابطة القلمية بزعامة جبران انضم إليهم ، وهي الجماعة التي كان لها أثر بعيد في النهوض بشعرنا الحديث .

وكان جبران شاعراً وكاتباً ورساماً في آن واحد ، وكان مثقفاً بالآداب الغربية ثقافة واسعة ، وقد نزع في شعره منزعاً رومانسياً ، وقصيدته « المواكب » تعد أمماً لشعر المهاجر الأمريكي جميعه شمالاً وجنوباً ، وهو فيها ناثراً على أوضاع الحياة الإنسانية بقوانينها وشرائعها ونزاه - وقد أفعمه الألم - يطلب إلى الناس أن يفروا من حياة المدن والمدنية إلى الغاب أو إلى الطبيعة حيث البساطة وحيث لا سيادة ولا عبودية ولا عدل ولا ظلم ولا قوة ولا ضعف ولا إيمان ولا كفر ولا خير ولا شر ، ويتطلع إلى المجهول الخالد ويرمز إليه بالموسيقى والغناء على الناي ، فيجعله خاتمة لكل نشيد من أناشيد قصيدته . وتسرى هذا الروح الرومانسية في شعراء الرابطة القلمية جميعاً ، ويسرى معها إحساس عميق بآلام الحياة الإنسانية ، فهم يفكرون في حقائقها المظلمة التي تبعث على اليأس ، وقد ينظرون في السماء أو يتأملون في الطبيعة باحثين عن روح الوجود وحقيقته الخالدة ، والقلق يملأ نفوسهم ، والحزن يتفجر في قلوبهم .

وتأثر أبو ماضي بهذه النزعة الرومانسية عند جبران ورفاقه ، ولكنه لم يجر فيها إلى نهاية الشوط ، وكأنما كانت هناك مقومات تعوقه أن يسير في الدرب إلى غايته ، وربما كان ذلك راجعاً إلى وراثته عن أبيه ، فقد ذكر في رثائه أنه كان مبهج النفس لا يحب الحياة إلا شائقة رائقة ، يقول :

وكنّت نرى الدنيا بغير بشاشةٍ كأرضٍ بلا ماءٍ وصوتٍ بلا لحنٍ
ويظهر أن حياة أبي ماضي نفسه كانت وادعة سهلة ، فلم تعصف به

ولا بقلبه عاصفة التشاؤم الشديدة التي نجدها عند جبران ورفاقه ، وكأنما كانت لإرادة الحياة عنده أقوى من أن تفت فيها هذه العاصفة ، فنفضها عن نفسه ، وإن بقيت آثارها عالقة بخياله ومشاعره ، فهو مهما فكر في آلام الإنسانية وفي المهجول وألغازه وفي الموت وأساره لا يفضى إلى اليأس الخالص بل تلمع أقواس التفاؤل دائماً في سماء وجدانه ، حتى في أحلك اللحظات وأشدّها قسمة وعبوساً . ولماذا يحزن الإنسان ويبتسئ في دنياه ؟ إنه ينبغي أن يقبل الحياة كما قسمت له وأن لا يسخط على السماء ولا على الأرض ولا يتمرد على ما أريد به ، بل يرضى بما كتبه القضاء ، فهو الذي يسيره في الطريق المرسومة له .

وتعثره بتأثير جبران ورفاقه أحوال نفسية مختلفة ، يشعر فيها بالآلم الإنساني ، ولكن لا يلبث أن يرتد إلى تفاؤله ، وكأنما كان التقاؤه بهم ومعيشته معهم بمثابة ضغط شديد على شاعريته ، لتكثُر خواطره في الكون والطبيعة وآلام البشرية ، ولتجلى له التفاؤل في أجنحته الزاهية اللامعة ، لقد وجد في آلامهم إزاء الوجود والحياة ما يوقظ فيه فكره ومشاعره من طرف ويوقظ نزعته المتفائلة من طرف آخر ، فهو يتأمل في الغاب والطبيعة وهموم الإنسان ولكن دون أن يتورط في تشاؤم مرير ، بل إنه يندفع اندفاعاً إلى تفاؤل مضىء تشرق به نفسه . وبذلك زخر تفاؤله بفكر عميق . ويظهر أنه قرأ رباعيات عمر الخيام ، وأثرت في قلبه تأثيراً عميقاً ، فكثير من أفكاره يجرى في شعره ، وتفاؤلهما يتطابق في كثير من جوانبه ، وإننا لنجد عنده كل ما ينادى به الخيام من المتاع بالملاذ في الحياة وأن نبعد عن أذهاننا شبح الغد والفناء والتفكير في أسرار الوجود وألغازه ، لأن تفكيرنا في ذلك كله يعود بعد عناء البحث كليلاً حسيراً .

ومعنى ذلك أن تفاؤل أبي ماضي تجرى فيه فلسفة الخيام في رباعياته ، كما تجرى فيه نزعته جبران الرومانسية هو ورفاقه ، وأتاح هذا كله لتفاؤله ثراء في المعاني والمشاعر والأحاسيس ، فهو لا يتفاهل تفاؤله البكّه ولا تفاؤل من يأخذون الحياة من ظاهرها المضىء ويمضون دون تفكير في جوانبها المظلمة ،

ونستطيع أن نطلع على تفاؤله اطلاقاً واضحاً حين نستعرض دواوينه الثلاثة التي نشرها في نيويورك ، أما ديوانه الأول الذي نشره في سنة ١٩١٩ فلعل خير قصيدة تمثل هذه النزعة عنده هي قصيدة « فلسفة الحياة » وفيها يقول :

أيهذا الشاكي وما بك داء*	كيف تغدو إذا غدوتَ عليلا
إن شرَّ الجناة في الأرض نفس*	تتوقى قبل الرحيل الرحيل
وترى الشوك في الورود وتعمى	أن ترى فوقها الندى إكسبلا
والذي نفسه بغير جمال	لا يرى في الوجود شيئاً جميلا
فتمتع بالصبح ما دمت فيه*	لا تخف أن يزول حتى يزولا
واطلب اللهو مثلما تطلب الأط	يارُ عند المهجير ظللاً ظليلا
أنت للأرض أولا وأخيراً	كنت ملكاً أو كنت عبداً ذليلا
كلُّ نجمٍ إلى الأفول ولكن*	آفةُ النجم أن يخاف الأفولا
ما أتينا إلى الحياة لنسقى	فأريحوا أهلَ العقول العقولا
كن هزارةً في عشه يتغنى	ومع الكبّل لا يبالي الكبولا
هو عبءٌ على الحياة ثقيل*	من يظن الحياة عبئاً ثقيلاً
أيهذا الشاكي وما بك داء*	كن جميلاً ترَ الوجودَ جميلا

والفكرة المسيطرة على القصيدة هو أن نأخذ المتعة من الحياة دون تفكير فيها ولا في آلامها، ويجاول أن يُخدّر حسناً، بالضبط كما يصنع الحيام ، في ربايعاته — فالحياة جميلة ، وجمالها يرد إلى النفس ، ولا عبرة بما يبدو من منغصاتها ، إن الإنسان هو الذي ينغص عيشه بيده ، فالعبرة بنفسنا لا بقم الأشياء في ذاتها ، فن كانت نفسه سليمة جميلة رأى الحياة سارة بهيجة ، ومن كانت نفسه مريضة كئيبة رآها مشوهة كريهة . فلنمرح ولننعم باللحظة التي نحن فيها ، ولنطرح كل هم عن ظهرنا ، ولنلق عنا كل فكر في غصصها وخاصة الغصة الكبرى غصة الموت والفناء . إن كل إنسان فان لا محالة فلنترد خوف الموت عن أنفسنا ولنعب عباً من كنوس الحياة ومتعها ، إننا لم نأت للحياة

لنشقى ونجمع المموم علينا ، ولنكن مثل الطير تتغنى في الهجير ، بل لنكن مثل الهزار يتغنى وهو في القيود ، وعلى هذه الشاكلة يحاول أن يحدّر إحساسنا بالآلام الحياة وما نشكو منه في دنيانا .

ومضى مع أبي ماضى في ديوان الجداول الذى نشره في سنة ١٩٢٧ فنجد هذه الفلسفة التى أذاعها في ديوانه الأول مبثوثة في غير قصيدة ، وهو يذيع معها استسلاماً للمقادير ، مع الإنكار الشديد لكل ما يقال عن الغد المجهول ، ولعل خير قصيدة تصور ذلك قصيدته «بَرْدَى يا سحب» وفيها يقول :

رضيتُ نفسى بقسمتها	فليرادُ غيرىَ الشُّهباً
ما غدٌ يا من يصوره	لى شيئاً رائعاً عجيباً
ما له عينٌ ولا أثرٌ	هو كالأمس الذى ذهباً
استقى الصُّهباءَ إن حضرتُ	ثم صفُ لى الكأسَ والحبيبا
إنَّ صدقاً لا أحسُّ به	هو شىءٌ يشبه الكذباً
أنا من قومٍ إذا حزوا	وجدوا فى حزنهم طرباً

فهو مدعن للقدر راض بحظه المقسوم ، وهو لا يريد أن يفكر فى الغد والفناء ، فالغد لم يأت ، وهو أيضاً لا يريد أن يفكر فى الأمس وهمومه ، فحسبه أن يفكر فى حاضره ، إن الغد لم يولد والأمس قد انتهى ، وهو يدعو صاحبه أن يصب له الخمر وأن يحدثه عنها وعن كثوسها ويترك حديث الغد المجهول ، فإن الصدق الذى لا يحس به مثله مثل الكذب سواء بسواء . وأبو ماضى يستمد فى هذه القطعة من رباعيات الخيام مباشرة ، إذ يتردد فيها أن ينعم الإنسان بالخمر ونشوتها ويدع التفكير فى الأمس والغد ومصير الحياة ، يقول أبو ماضى : وما مصير الحياة ؟ إن كل ما يقال عنه مما يسمى صدقاً هو أشبه ما يكون بالكذب . ويعلن أنه يقتبس فرحة الحياة حتى من خلال الحزن والألم .

وقد قلنا آنفاً إن رومانسية جبران ورفاقه أثرت فى تفاعله ، فإن هذا التفاؤل

اصطدم بتشاؤمهم وبتفكيرهم العميق في آلام البشر مع التأمل في الطبيعة والكون ، واتخذ ذلك عنده في بعض قصائده شكل صراع نفسي بين الإحساس بهوموم الحياة والإحساس بمتعها على نحو ما نرى في قصيدة « المساء » التي يرمز بها إلى الكهولة . وفيها نجد فتاة تسمى « سلمى » ترنو إلى غروب الشمس وقلبها زاخر بالقلق والحلم فإن الضحى ، بل النهار جميعه، فرّ من تحت عيناها وغاب عن بصرها ، وهي مكتئبة لما ينشر المساء حوطها من ظلام ، ويسألها أبو ماضى لماذا تجزع على النهار أو الشباب الماضى وللدجى الحاضر (دجى الكهولة) أحلامه ورغائبه وسماؤه وكواكبه ، ويطلب منها أن تطرح عنها همومها وأن تمتع نفسها بما في ليلها من جمال ، فتصغى إلى صوت الجداول وتستنشق نسيم الأزهار وتبصر الشهب ساجحة في أجواز الفضاء قبل أن ينزل بساحتها الموت ويحل العدم والفاء .

فاصغى إلى صوت الجدا ول جاريات في السفوح
واستنشق الأزهار في ال جَمَنَات ما دامت نفوح
وتمتعى بالشهب في ال أفلاك ما دامت تلوح
من قبل أن يأتي زما ن كالضباب أو الدخان

لا تبصرين به الغدير

ولا يلد لك الحرير

ويطلب منها أن لا تفكر في الحياة ، فالتفكير فيها يبعث على الإحساس بآلامها ، ويقول لها: دعى الكآبة والأسى ، وعودى إلى مرحك القديم في ضحوة النهار ، ولتكن حياتك كلها آمالا وأحلاماً جميلة . وهو هنا - كما رأينا - في قصيدته « فلسفة الحياة » يحاول أن يحدّ رحس سلمى إزاء هموم الحياة وخطوبها ، فيطلب إليها أن تنسى ما هي فيه من كهولتها وأن لا تذكر ما مضى من شبابها وتمتع نفسها عن طريق حسنها المخدر بالطبيعة وغير الطبيعة . ولعل أكثر قصائده في هذا الديوان سروراً بالحياة هي قصيدة « تعالى » وفيها تتمترج فرحة الحب

بفرحة الخمر والطبيعة ، وهو يفتتحها بقوله :

تعالىٰ نتعاطاها كلون التَّبْرِ أو أسطع
ونسقى الرجس الواشى بقايا الراح في الكاس
فلا يعرف ما نحنُ ولا يبصر ما نصنعُ
ولا ينقل عند الصبِّ ح نجوانا إلى الناسِ
تعالىٰ نسرق اللذات ما ساعفنا الدهر
وما دمت لنا في العيش آمال

فهو يدعو صاحبه أن تتناول الكأس معه وأن تنعم بليتها وأحلامه ويقول لنذع
الخوف من الواشين ومن الناس ، ولنختلس اللذات اختلاصاً ، فهي آمالنا
وسعادتنا في الحياة ، بل إنه ليثور ثورة عارمة على العرف والتقاليد .

تعالىٰ نطلق الروح ين من سجن التقاليدِ
فهذى زهرةُ الوادى تذيع العطر في الوادى
وهذا الطير تسيَّاهُ فخورٌ بالأغاريد
فن ذا عسَفَ الزهر ة أو من وبَّخ الشادى

وكأنه يتخذ من الزهر وما يذيع من عطر والطير وما تشدو من أغاريد
دليله على هذه الثورة الحسية وما يطلبه من لذات الحب ومتمعه . ولا يلبث أن
يدعوها إلى الغاب ليمتزجا معاً كامتزاج الماء والخمر في الكأس . وتتحد الطبيعة
اتحاداً تاماً مع حبه ، فهو إذا ضحك ضحك معه الفجر وإذا ركض ركض
معه الجدول والنهر، ودائماً نجده يصيح بملاذه ، حتى وسط القفر :

علمتني الحياةُ في القفر أنى أينما كنت ساكنٌ في التراب
وسأبى ما دمت في قفص الصلِّ صال عبْدَ المنى أسيرَ الرغاب
خلت أنى في القفر أصبحت وحدى فإذا الناس كلهم في ثيابى

فالتبيعة لا تستطيع أن تنسيه رغباته الحسية ، وهي تصرخ في كيانه وأعماقه
كما تصرخ معها مادية مسرفة ، فهو لا يؤمن بعالم آخر وراء دنياه ، وهو لذلك

يدعو إلى الإقبال على ملاذها قبل أن نتحول إلى لا شيء ، إلى العدم والفاء ، وقد تتنابه لحظات تفكير في عالم السماء ، ولكن سرعان ما يهبط إلى كونه المادى ومطالبه الحسية . و تبدو دائماً له الحياة جميلة ، فإن لم تكن جميلة خَدَّرَ رَحِيْسَةً وَأَنَامَهُ وَتَصَوَّرَهَا جَمِيلَةً خَلَابَةً تَبْعَثُ عَلَى الرِّضَا وَالتَّفَاوُلِ وَالتَّابَسَامِ .

وتلقانا هذه الروح في ديوانه الثالث « الحمائل » الذى نشره فى سنة ١٩٤٢ فالدنيا من حوله زاهية مشرقة وإن ادلمت من جانب لا تلبث أن تضيء وتنير من جانب آخر ، وهو يدعونا أن لا نغتم ولا نبتئس حتى لو ابتأست الطبيعة نفسها ، فالعمر قصير وحياتنا وشيكة الزوال وسنتهى إلى العدم ولا محيص ، فحرى بنا أن نلقى الحياة مبتهجين ، دون أن ننغصها بذكرى شباب تولى أو محبوبة خانت أو تجارة خسرت أو أعداء كشروا عن أنيابهم الحداد ، وحتى كوارث الليالى وخطوبها يجب أن نلقاها بالتفاءل والابتسام يقول فى قصيدته « ابتسم » :

قال : السماء كثيبةٌ وتجهما	قلت : ابتسمْ يكفى التجهم فى السما
قال : الصبا ولتى : فقلت له ابتسم	لن يرجع الأسف الصبا المتصرما
قال : التى كانت سمائى فى الهوى	صارتْ لنفسى فى الغرام جهنما
خانت عهدى بعد ما ملكتها	قلبي ، فكيف أطيق أن أتبسما
قلت : ابتسم واطرب فلو قاربها	قضيتْ عمرك كله متألما
قال : العدا حولى علتْ صيحاتهم	أأمسّرُ والأعداء حولى فى الحمى
قلت : ابتسم ، لم يطلبوك بدمهم	لو لم تكن منهم أجلٌ وأعظما
قال : الليالى جرعتنى علقما	قلت : ابتسم ولئن جرعتْ العلقما
واضحك فإن الشهب تضحك والدجى	متلاطمٌ ، ولذا نجبُ الأنجما
قال : البشاشة ليس تُسعد كائنا	يأتى إلى الدنيا ويذهب مرغما
قلت : ابتسم ما دام بينك والردى	شبرٌ ، فإنك بَعْدُ لن تبسما

فلتكن فلسفتنا الابتسام دائماً ما دمنا أحياء ، ولننهرز فرصة الحياة قبل أن

نصير إلى لاشيء ، إلى تراب في تراب . وما يزال يردد أن الإنسان الكئيب يصبغ الحياة بكآبة نفسه وأفكاره السوداء التي تلح عليه ، فالتشاؤم والتفاؤل مرجعهما إلى الإنسان ، فهو الذي إن قبل الحياة كما يهديها القدر إليه أشرفت نفسه واغتنبت وابتسمت ، وإن لم يقبلها وأحسَّ بأشواكها وشرورها أظلمت نفسه ويثت وابتأست ، فنفس الإنسان هي التي تعكس له الحياة إما نقية جميلة ، وإما كدرة قبيحة ، يقول من قصيدة بعنوان « الغبطة فكرة » .

أقبل العيدُ ولكن	ليس في الناس المسرة
لا أرى إلا وجوهاً	كالخات مكفهرة
وحدوداً باهتات	قد كساها الممُّ صُفرة
وشفاهاً نحذر الضحَّ	ك كأن الضحك جَمْره
ليس للقوم حديثٌ	غير شكوى مستمره
لا تسَلْ ماذا عَراهم	كلهم يجهل أمره
حائرٌ كالطائر الحا	ثف قد ضَبِعَ وَكَرَّه
فوقه البازيُّ ، والأث	راك في نَجْدٍ وحُفْره
كلهم يبكي على الأم	س ويخشي شَرَّ « بكره »

أيها الشاكي الليالي	إنما الغبطة فكره
ربما استوطنت الكو	خَ وما في الكوخ كيمره
وإذا رَقَّتْ على الفَقْدُ	ر استوى ماءً وخضره
لك ، ما دامت لك ، الأر	ضُ وما فوق المحرّه
فإذا ضيَعَتْها فال	كون لا يعدل ذرّه
فتهلَّلْ وترمِّ	فالفقي العابسُ صخره
سكن الدهر وحانت	غفلةٌ منه وغرّه
إنه العيد وإن ال	عيد مثل العرسِ مَرّه

فالناس هم الذين ينشرون جو الحزن والكآبة حولهم ، بما يصورون لأنفسهم من سيئات الحياة وشروها ، يفكرون في الأمس الماضي ومحنه وفي الغد المقبل وظلمه ، وإن الواجب أن يتخلصوا من هذه الهموم الثقيلة التي تجثم على صدورهم وتُشيع في حياتهم الحزن والسواد والقلق والخوف . إن الغبطة تنبع من النفس حين يعيش الإنسان عيشة راضية بحاضره ، فلا تهتف به هواتف الماضي ولا هواتف المستقبل : هواتف الفناء والعدم ، إنما تهتف به ملاذ اللحظات الحاضرة ، وما الغبطة ؟ إنها رمز الجمال في الحياة ، بها يكتسى الغصن رونقه ونضوته ، وبها يصبح القفر جنة وفردوساً مشهى ، فلتبتهج ولتفرح ما دمت حياً .

ولا يزال أبو ماضى في الحماثل كما رأينا في الجداول يكرر أن العدم والفناء نهاية الحياة وأن حرياً بنا أن نهب متع دنيانا وملذاتها نهياً قبل أن نفلت فرصة العمر من أيدينا ، ودائماً متعها وملذاتها الحب والخمر والطبيعة :

اخلق لنفسك بالمدامة جنةً
في الأربُع المهجورة الأدراسِ
الجب فيها بلبلٌ وخييلةٌ
وندىٌ وأصواءٌ على الأغراسِ

ولا يميل الدعوة إلى اطراح الهموم ونسيان الآلام وكل ما يعكر صفاء الحياة ونقاءها ، فلك لحظة المتعة والسعادة التي أنت فيها ، وكل ما عداها باطل وقبض الريح .

٣

وهذا التفاؤل الذي يجرى في شعر أبي ماضى تنفذ فيه من حين إلى حين لحظات حيرة وقلق ، فهو لا يتفائل في الحياة عن غير بصيرة وفيهم ، بل هو يفكر فيها وفيها يلوّن بعض جوانبها من تشاؤم وسواد ، حتى لئراه يقرن الصنفتين والمنزعين ، ويجعلهما صراعاً بين القلب والعقل كما في قصيدته « بين مد وجزر » فالقلب يفجر ينباع السعادة في النفس ، والعقل ينمجر ينباع الشقاء ، ويضغط عليه الحزن فيقول :

لا تسألوني اليوم عن قيثارى
قيثارى خشبٌ بلا أنغامِ

فلم يكن تفاؤله عابثاً أو لاهياً عن التفكير حتى في التفاؤل نفسه ومصدره ومصدر ما يبحث عنه من مسرة ، وقصيدته « العنقاء » تصور مدى عنائه في هذا البحث ، فقد ذهب يطلب السعادة عند الطبيعة ، عند الفجر والدجى والنجوم والبحر ، فسخرت منه ، فطلبها في القصور والأكواخ ، فلم يجد لها أثراً . ونصحوه أن يتزهد ، فوَادَ أفرأحه وحطم أقداحه ، ورزح تحت الزهد حتى كاد أن يلفظ أنفاسه ، ولم يفز منها بطائل ، فترك عالم اليقظة إلى عالم الرؤى والأحلام ، لعله يراها في أطياف المنام ، يقول :

ثم انتبهتُ فلم أجد في منجدي إلا ضلالى والفِرَاشِ ومنجدى

وذهب يطلبها في الزمان ومروره ولكنها لم تلح له ، وعرف أخيراً أنها لا تأتي من الخارج ، فهي مستقرة في داخله إذ تكمن - كجذوة نار - في النفس وفي أحاسيسها وفي أساها ودموعها ، يقول :

عَصَرَ الأسي روجى فسالت أدمعاً فلَمَحَّمتها ولستها في أدمعى
وعلمت حين العلمُ لا يُجدى الفتى أن التى ضيَّعتها كانت معى

فتفاؤل أبى ماضى لم يكن فارغاً من القلق والحيرة والإحساس بالأسى والألم . واقتران تفاؤله بهذا الإحساس هو الذى أعطاه حدته وتوجهه ، فهو يقبل على التفاؤل فراراً من التشاؤم الكريه وما يجرم من حزن وقلق ، بل لكأنه الملجأ الذى يجد فيه راحة قلبه من المواجهس الخفيفة والحواطر المفزعة المرعبة ، وهى حواطر لا تأتيه من إحساسه بآلام الإنسانية وحدها ، بل تأتيه أيضاً من عجزه عن حل ألغاز الوجود وفهم أسراره ، فما الكون وما الفلك وما الطبيعة وما بدؤها ونهايتها ؟ ومن أين نجىء وإلى أين نذهب ؟ وما الموت الخيف الذى لا يبق على حى ؟ وما الدين وعالم السماء ، وهل يستطيع هذا العالم أن يفسر لنا المعميات التى نحار فيها ، وهل هو عالم حقيقى أو من صنع الخيال ؟ لقد حاول فى قصيدته « نار القرى » أن يصعد فى مدارج هذا العالم ، فطار قليلا ، ولم يلبث أن هوى إلى الأرض ، وظل فيها وظل معه فلقه وحيرته ، فلجأ إلى العقل

يسأله ولم يجد عنده جواباً شافياً ، فيشس منه ، ومضى يتخبط في شكه ،
غير مؤمن بشيء سوى وجوده وما يكون بعد الوجود من موت وعدم :
ما لحى بالموت عنه انفصالٌ إن دنياه هذه أخسراه

فمن شاء فلينعم بدنياه وملازها قبل أن يفوت الأوان وينزل به الفناء الساحق
المالحق ، وليدع التفكير في الحلال والحرام وما شرعه النبيون !:

أكبرُ الإثمُ قولةُ المرءِ هذا الـ أمرُ إثمٌ وهذه فحشاءُ
ليس بين الصلاح والشر حدٌ كالذى شاء وضعه الأنبياء

ولعل أهم قصيدة تصور حيرته أمام الكون وألغازه وتكشف عن شعوره
العميق بقصوره عن التغلغل في حقائق الأشياء واستجلاء صفاتها وعلاقاتها
ومصدر وجودها هي قصيدة « الطلاسم » وهو يسئلهما بقوله :

جئتُ لا أعلم من أرى نَ ولكني أتيتُ
ولقد أبصرتُ قدماً منى طريقاً فشيئتُ
وسأبتُ ما شيئاً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئتُ كيف أبصر تَ طريقى ؟
لست أدري

فهو يعلن في فاتحتها جهله بمصدر وجوده بل بمصدر الوجود كله ، إنه
لا يعرف إلا حياته ، وهي حياة لم يكن له فيها رأى ولا اختيار ولا إرادة ،
ولجأ إلى مظهر كبير من مظاهر الطبيعة هو البحر ، يسأله عن سره وصلته
بالموجودات من حوله وفي قاعه ، ولم يجد عنده مع كل سؤال سوى « لست
أدري » وفزع إلى الدبر ، فلم يجد عند أهله ما يشق حيرته وقلقه ، بل لقد
وجدهم حائرين قلقين مثله :

قد دخلت الدَيْرَ أستاذتُ طقُ فيه الناسيكتنا
فإذا القوم من الحيرة مثلى باهتونا

غلب اليأس - عليهم فهم مستسلمونا
 وإذا بالباب مكتوب عليه :
 لست أدري

وانتقل إلى المقابر يسأل عن الموت ، وهل هو فناء مطلق لا قيام بعده ولا بعث ولا نشور ، ولم يجد جواباً سوى : « لست أدري » فتولى أسفاً حائراً ، فكل ما حوله يخيم الغموض والظلام عليه ، وعاج بالفكر ، فلم يجد عنده بارقة أمل في جواب ، وغشى نفسه صراع وعراك ، فهو لا يدري شيئاً من أمره ، وكذلك الناس من حوله ، بل حتى مظاهر الطبيعة :

قد رأيتُ الشهب لا تدري لماذا تشرقُ
 ورأيتُ السُّحب لا تدري لماذا تُغْدقُ
 ورأيتُ الغاب لا تدري لماذا يورقُ
 فلماذا كلها في الـ جهل مثلي ؟
 لست أدري

فكلها مسيرة بدون إرادتها ، قد أكرهت على طبيعتها . وينظر فلا يجد فارقاً بينه وبين الطير والزواحف والتمل ، فلها جميعاً مثله شراب وطعام وقوت ، وتحيا طويلاً أو قصيراً وتموت ، بل إنه لا يفترق عن الصبيان ، فهو مثلها سجين صلصال وطين وهي مثله لا تفقه وجودها ومعناها ، ويخرج من القصيدة كما دخل ، فألغاز الوجود لا تزال بدون حل :

إنني جئت وأمضى وأنا لا أعلمُ
 أنا لغزٌ وذهابي كمجيشي طلسم
 والذي أوجد هذا الـ غز لغزٌ مهم
 لا تتجادلُ ذا الحجى من قال : إنى
 لست أدري

وعلى هذا النحو ظلَّ أبو ماضي حائراً قلقاً لا يستطيع فهم الوجود ولا فهم الكون من حوله ، فكل ذلك ألغاز وطلاسم ، وكأنه أعياه فلَمْكُ هذه الطلاسم فرأى أن يزبح أُنقال جهله وحيرته عن صدره بكنوس التفاؤل الشفافة ، فهى التى تخذُر حواسه وتنيم قلقه ، وترىحه لا من التفكير فى ألغاز الوجود والحياة والفناء فحسب ، بل أيضاً من التفكير فى كل ما يجلل الحياة من بؤس وشقاء وحزن وألم .